

ظواهر نقديّة خاطئة



النقد نفسه يحتاج إلى نقد أحياناً، فليس كلُّ ما هو مطروح تحت عنوان النقد يحمل خصائص النقد الصحيح، فبعضه "مهاجرة" وبعضه "تشفيّ" وبعضه "انتقام" وبعضه "تنفيس عن حقد" وبعضه "إعراب عن حسد" وكما في أيّ سوق، فكذلك في سوق النقد، لا يصحُّ أن نقبلَ أيّة بضاعة مطروحة على أرضها خالية من الغش والتلاعب.

حاولنا أن نستقريّ جوانب من الواقع النقدي الميداني - ما أمكننا ذلك - لنشخص النقد (السقيم) حتى نطرده أو نبعده عن النقد (السليم) فرأينا أن من بين أخطاء النقد أو الممارسات النقديّة ما يلي:

1- مجاوزة الغرض إلى ما هو أبعد منه:

فقد يتلبّس الناقد بلباس النّصح والغيرة والإخلاص ظاهراً، فيتخذ من نقده فرصة للطعن في شخصية

المنقود والانتقاص منه وتسقيطه من خلال موقفٍ ما أو زلّة أو هفوة أو خطأ معيّن، وقد يذهب بعيداً فينبش ماضيه وتاريخه ويُخرج من قبور الماضي جثثاً متفسّخة، فلا يستر عورة، ولا يراعي مشاعر ولا يوفّر منقمة إلا ووضعتها على الطاولة وتحت المجهر وحوّلها إلى حديث المجالس والمنتديات.

2- النقد اللاذع يكسر الهمّة:

النقد شأنه شأن غيره من سُبُل الإصلاح، خيرهٌ أوسطه، فلا التقرّيع والتجريح والهجاء المُقذّر بِنافع، ولا تخفيف اللهجة لدرجة انعدام التأثير بمُجدٍ، فكثيراً ما سيّب النقد اللاذع هجوماً مضاداً، وخطّام المعنويات، ودفع إلى العزّة بالإثم، ونجم عنه مراودات عكسيّة لا تُحمد عقباها.

3- أكبر العيب أن تنقد ما فيك مثله:

أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله، فإن تُشهر سيف النقد وتُطلق سهامه في كلّ اتجاه وفيك من الأخطاء ما هو مثل أو أكثر ممّا لدى الشخص أو الجهة المنقودة فذلك ممّا يعدّه البعض عيباً شائناً، بل "عاراً". يقول الشاعر:

لا تنه عن خُلُقٍ وتأتي مثله * عارٌ عليك إذا فعلت عظيمٌ

وهذا المعنى مستوحى من قوله تعالى: (أَتَأْتِ مُرُوءَ النَّاسِ بِالْبِرِّ وَتَذْسُونَ أَنْ نَغُسَّكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ) (البقرة/ 44) وقوله عزّ وجلّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) (الصف/ 2-3). ولذا فقد قال الشاعر المذكور:

يا أيُّها الرجلُ المعلّمُ غيِّره **** هلا لنفسك كان ذا التعليمُ

تصفُ الدواءَ لذي السقامِ وذي الضنى **** كيما يصحّ به وأنت سقيمُ

ونراك تٌصلحُ بالرشادِ عقولنا **** أبداً، وأنتَ من الرشادِ عديمُ

ابدأ بنفسك فانها عن غيرِها **** فإذا انتهت عنه فأنتَ حَكيمُ

فالبعض قد يرى - كما يقول السيّد المسيح (ع) القشّة في عين غيره ولا يرى الخشبة في عينه، ولذلك يقول: "استُر عورة أخيك لما يعلمه فيك"، ومن أقوال وأمثال العرب: "خرقاء عيابة" فهي تعاني النقص في عقلها وتعيبه في الآخرين.

4- النقد العلني بمثابة التشهير أحياناً:

الأولى: إنَّكَ تُطلع غير المطّلعين على عيب أو خطأ المُنتقَد (المنقود).

الثانية: وهي تبعٌ للأولى، أنَّكَ تجرد إحساسُ المنقود بذلك لأنَّكَ فضحتَه، فلا يقبل منك نقداً لأنَّكَ لم تكتف بمعرفة عيبه بل عرّفت به أيضاً، وكأنَّكَ شهّرت به، لذلك قلّما كانت النتائج المتوخّاة من النقد في حضرة الآخرين مأمونة ومضمونة، لأنَّ الناقد هنا يريد أن يصحّح خطأً أو ينبّه عليه ويحذّر منه صاحبه، وإذا به يرتكب خطأً فينبّه الآخرين إليه وفي ذلك إساءة لمشاعر المنقود ولا شكّ.

5- تعميم النقد وإطلاقه:

اللغة الشمولية في النقد - خاصة إذا كان الخطأ مشخّصاً ومحصوراً - لغة غير علمية ولا أخلاقية أيضاً، فحين تنتقد شخصاً أو بعض الأشخاص فتقول: كلّهم هذا، لا أفرّق بين أحدٍ منهم، أو جميع الناس يفعلون ذلك، أو لا أحد يخلو من هذا العيب أو المنقصة أو المذمّة.. إلخ، فهذا الأسلوب التعميمي يتعارض مع العقل والمنطق والواقع، فلا بدّ من أن تكون هناك استثناءات، وإلا فالتعميم في الحكم كإطلاق النار على الجميع أبرياء ومتهمين وفي كلّ حدب وصوب. قصف عشوائي يطالُ الجناة وغير الجناة معاً.

6- النقد الهامس الخجول (الذي في غير موضعه):

كثيراً ما تعاني الشعوب المضطهدة المقموعة من هذه الظاهرة، وهي أنَّ النقد السريّ أو الذي يدور في دوائر مغلّقة من بعض المضطهدين الذين يتهامون في السرِّ عملاً يعانون في العلن، فلا يصل نقدهم إلى أسماع المعنيين ممَّن هم السبب المباشر في بلأئهم، بل تراهم يحاذرون أن يصل إليهم مخافة التعرّض لمزيد من الاضطهاد.

إنَّها عملية تنفيس ليس إلا، ودوران في حلقات مفرغة، ولذلك لا يؤدّي النقد هنا غرضه المطلوب.

ومن الشواهد والأمثلة الاجتماعية الحيّة لهذا النقد ما تقومُ به بعض النساء من نقد أزواجهنَّ في حضرة نساء أخريات، طناًَّ منهنَّ أنَّهنَّ بذلك يدافعن عن أنفسهنَّ أو يكافحن الوضع السلبي الوخيم الذي يعاني منه، وطالما أنَّ المتهم (الزوج هنا) غائب، أو بعيد عن النقد، فالحال كما هو وريّما يسوء أكثر مع اطلاعه بطريق أو بآخر أنَّ زوجته تسلقه بلسانٍ حادٍّ في غيبته مع الغرباء أو الأقرباء.

7- نقد الشخص لا نقد النتاج:

من طواهر النقد السلبية الشائعة في البلدان والشعوب المتخلّفة أنَّهُ إذا أبغض شخصٌ شخصاًَّ لسبب أو لآخر، أبغض كلَّ ما يتعلّق به أو يصدر عنه من قريب أو بعيد، فلا يكون الشخص فقط هو موضع الانتقاد، بل يطال النقدُ أهله وذويه وأصحابه بل وريّما موته، وحتى نتاجاته التي تصدرُ عنه فكراً أو أدباً أو أي شيء آخر، وهذا - بالطبع - خلاف المروءة والموضوعية ومجانبية للانصاف والعقلانية، فخطأ الشخص ليس خطأ كلَّ ما يتعلّق به أو يمتُّ بصلّة إليه.

8- تلبّس الحسد والغيرة لباس النقد:

قد يظهر الحاسد بمظهر الناقد وهو يستعرض سلبيات الآخر - فرداً أو جهةً - وهو - قبلُ غيره - يعرفُ أنَّه ليس في موضع النقد والتقييم، بل في موضع النقض والتهديم.. إنَّه لا يستطيع أن يصرَّح جهاراً بغيرته وحسده لأنَّ ذلك ممَّا يسيء لشخصه، فتراه يصبُّ جامَ غضبه وحقده وحسد في نقد المحسود واستقصاء معايبه ونقائصه، بل واعتبار كلِّ إيجابية لديه سلبيةً ومثلية، وما ذاك إلا رشة من رشحات تصوُّره المريض، فالبعض يبلغ به حقده وحسده ليس بأن لا يرى بياض الأسنان بل لا يرى الأسنان بالمرَّة (1)!

إنَّنا لا يمكن أن نعتبر ما يصدر عن حسد وغيره نقداً، يمكن أن يكون أيُّ شيء إلا النقد بمفهومه الصحيح.

9- النقد.. من غير تقدير الظروف والملابسات:

ضع نفسك مكانني.. تلك قاعدة ذهبية، أو طلب مشروع في التعامل بحيادية مع الحالات المنقودة أو المنتقدة، فطالما أنتَ بعيد عن الطرف المحيط بالمنتقد، يسهلُ عليك انتقاده، ومَن يدري لو كنتَ مكانَه لارتكبت من الأخطاء أكثر ممَّا يرتكب إلا إذا أحرزتَ من نفسك العصمة، وليس فينا معصوم أو منزَّه ومبرِّئ من العيوب، ولذلك قال السيد المسيح (ع): "مَن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر!!"

نسوةُ المدينة انتقدنَ مراودة زليخا ليوسف (ع)، وحين علمت بمكرهنَّ أعقدت لهنَّ متكأً وأنت كلَّ واحدة منهنَّ سكَّيناً، ولما رأينه (أي يوسف) أكبرنه وقطعن أيديهنَّ.

ما عملته "زليخا" ليس ردَّ النقد الكلامي بنقد كلاميٍّ مثله، وإنَّما وضعتنَّ في الموقف ذاته لترصد ردَّ فعلهنَّ، فتبيِّن أنَّهنَّ فعَلنَ أكثر ممَّا فعلت.. (فذلك الذي لمتنَّني فيه).. ما أشبه بعضُ الناس - في نقدهم - بنسوة المدينة!!

10- نقد التاريخ ونسيان الجغرافيا:

البعض منّا ينتقد المواقف والمواطن والمواقع والأحداث والشخصيات التاريخية نقداً لا ذعاً ودقيقاً، إذا ثابَ إلى الواقع وقعَ في حالة انقسام، فقد ينتقد الظلم الذي وقع في حقبة تاريخية معيّنة، لكنّك تراه لا يتحمّس لنقد الظلم الواقع عليه وعلى أمّته بنفس الدرجة، والحال أنّ الظلم ظلمٌ وقعَ قبل ألف سنة أو حصل قبل دقائق.

إنّها ازدواجية المعايير: رفض الظلم تاريخياً والقبول به أو السكوت عنه حالياً. نعم، قد ينتقد البعض التاريخ لينتقد من خلاله - وبطريقة غير مباشرة - الأوضاع الراهنة، وقد يكون لذلك ما يبرّره ويسوّغه خاصّةً في المجتمعات البوليسية المغلقة.

11- لا مقدّسَ في النقد إلا ما كان مقدّساً:

باب النقد مفتوحٌ على مصراعيه بشرطه وشروطه ومراعاة أصوله وآدابه، وليس ثمّة حصانة لأحد إن هو أساء أو أخطأ أو ارتكب ما يُهين ويُشين، ويخالف العرف والشرع والقانون. فالهالات المقدّسة التي يحاول البعض أن يرسمها حول شخصه لا تصمد أمام النقد إن كان هذا البعض ممّن يضع نفسه في موضع النقد والاتهام والشبهة.

أمّا المقدّسون من الأنبياء والرّسل والأوصياء الذين عصمهم الله من الذنوب والأخطاء والخطايا، ولم يُمسك الناس عليهم خطأ في قول أو فعل، فهم خارج دائرة النقد.. ببساطة شديدة لأنّهم جاهدوا أنفسهم جهاداً كبيراً فاختارهم الله لرسالته وهو لا يختار إلا المنزّه المبرّئ من كلّ عيب أو نقص، ولذلك فالجرأة عليهم جرأة على الله، ونقدهم إساءة وتجاوز وإهانة لمشاعر أتباعهم ومواليهم.

12- النقد من أجل النقد:

النقد كممارسة نظرية لا يستهدف الإصلاح دائماً، فهناك من نُسمّيهم بـ"هُواة الملاحظات" والذين ينقدون ويُبدون النفاث والعيوبَ في مناسبةٍ وغير مناسبة، مع المعنيّ بالنقد ومع من لا يعنيه، ممّا قد يتحوّل لدى البعض إلى حالة مرضيّة وعادة ملازمة، فلا يسمع بأحد أو بشيء إلا وينتقده،

والانتقاد - كما يرى البعض - غير النقد، فهو مجرد هواية وتسلية، وفي المحصلة هو جزء من حالة الترهّل الاجتماعي، ومظهر من مظاهر الاستخفاف والسخرية ولا يمت إلى النقد الموضوعي بشيء.

13- التعرّض للسلبيات والنقائص فقط:

النقد السليم البناء هو الذي يتعرّض للجانبين معاً: السليبي والإيجابي، هو نقد متوازن، وقد يقدّم الإيجابي لينتهي إلى السليبي، وعند البعض هو مجرد إظهار السليبي، حتى غدا إبراز المعايير والأخطاء سمة ملازمة للنقد، فإذا سمعتَ بالنقد تبادر إلى ذهنك الكشف عن الزلات والهبوات والأخطاء والثغرات، وقد يكون العمل كلّهُ أو أكثره صالحاً ما عدا هنةً هنا وضعفاً هناك، إلا أن التركيز ينصبّ على "الصغار" واعتبارها "كبائر".. وهذا نفسُ للعمل وإساءةٌ للعاملين.

14- النقد بناءً على آراء مسبقة:

القاضي الذي يُطلق الأحكام الجاهزة والمعلّبة هو أفضلُ القضاة على الإطلاق، لأنّه لم يتنبّه ولم يتوافر على الإحاطة بحيثيات القضية المعروفة للمحاكمة، وإنّما سمع الحكم عليها من قبل التحريّ والنطق به.

إنّ أيّ نقد ينطلق من رؤى وتصورات ونوايا قبيحة ومُبيّنة هو ظلم وتعصّب وتجنّب وترديد أو إطلاق للاتهامات من غير أدلّة ثبوتية ولا شواهد ولا شهود، فإذا كان الفَصْلُ بين صبيين يتباريان في رسمٍ أو خطٍّ هو حكم وهو قضاء، فما بالك بتقييم البالغين وإنصافهم؟!

15- التأهّب للردّ دون تفهّم مضمون وغاية النقد:

ثمّة ظاهرة ملفتة للنظر في أجواء النقد المحيط بنا، فالمنقود يقف مُستنغراً للرد على ناقدّه

سواء كان النقدُ في حقِّه حقًّا أو باطلاً، وكأنَّ المسألة مسألة شطارة، فالشاطر الذي يُفهم الآخر ويردُّه بأشدَّ الردِّ وأعنفه.

قليلون الذين يدعون للحقَّ والحقيقة، ولذلك فالقليلون أيضاً الذين يستفيدون من النقد.

.....

الهوامش:

(1) إشارة إلى قول السيد المسيح (ع) لحوارييه الذين تأفّفوا من نتانة وجيفة كلب متفسخ: انظروا ما أشدَّ بياض أسنانه!